شعراء العربية وأولادهم

بقلم رياض معلوف

أيوجد في الدنيا كلها أمتع من الولد هذا الكائن اللطيف الحبيب المسلوخ من القلب والذي هو نسخة عن والديه . وللشعراء الاقدمين والمعاصرين غزل بفلذات أكبادهم من أرق الشعر وأطيبه وأجوده ! وقد درّ الشاعر القائل :

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

ومن طريف قول ابن عبد ربّه في رثاء ابنه :

واكبدا تقطعت كبدي قد حرّقتها لواعج الكمد
ما مات حيٌّ لميّتٍ أسفاً أعذر من والدٍ على ولد
يا رحمة الله جاوري جدثاً دفنتُ فيه حُشاشتي بيدي !
ونوّري ظلمة القبور على من لم يصل ظُلمُه الى أحد ...
يا موتَه لو أقلتَ عثرتَه يا يومه لو تركته لغد ...

وتبارى شعراؤنا المعاصرون في وصف حنانهم وخوالجهم نحو أولادهم ومما قاله الأخطل الصغير في ابنته وداد وهي في العشرين ربيعاً من حياتها وما أروع ما قال :

يا قطعةً من كبدي فداكِ يومي وغدي
وداد يا انشودتي البكر ويا شعري الندي !
يا قامةً من قصب السكّر رخص العقد
حلاوة مهما يزد يوماً عليها تزد ...
عشرون قل للشمس لا تبرح وللدهر اجد ...

ومن لطيف قول الشاعر شفيق معلوف بولده :

لا ترجُ شعري إن شعر أبيكَ ليس بمسعدكْ
إن لم تخلّد أنتَ نفسك ما أنا بمخلدكْ
من مخبري فلربما نلت الخلود على يدكْ !!

ولامير الشعراء أحمد شوقي في اولاده الثلاثة : امينة وحسين وعلي :

أحبُّ صغار العالمين لأجلهم ويعطف قلبي ذو أبٍ ويتيمُ
(أمينتي) الدنيا اذا هي قبلتْ على العيش منها نضرةٌ ونعيمُ !
وقبل (حسين) ما تكلم مرضعٌ ولا نال علياء البيان فهيمُ
وأما (عليٌّ) فالمسيح حداثةً وقورٌ اذا طاش الشباب حليمُ
وإن راح يهذي في الحديث فشاعرٌ
وإن جدَّ فيما قاله فحكيمُ !

ولكاتب هذا المقال قوله في ابنتيه — نجوى وحياة —

أعزُّ عليَّ من المقلتينْ حياةٌ بعينٍ نجوى بعينْ
فحبي الدفيق تقاسم قلبي فاصبح قلبيَ ما بين بينْ ...
ولا فرق ما بين الصبيِّ وبين الفتاة على مهجة الوالدينْ !
لأن الصغار نعيم الحياة فحمداً لربي على نعمتينْ !
فاصبحتُ مثل فراش الرياض يرفُّ جناحي على وردتينْ !!

ومن جميل ما نظم الشاعر المهجري عقل الجر في ولدٍ على لسان أمه مع انه لم يتزوج :

أعطيته كالصبح غرته ملكاً تقمّص صورة الولدِ
أزهو بطلعته واحسبهُ الكون جمّع كله بيدي !

وابيضه ثدياً يخمشهُ فيطيب في تخميشه قودي
يحتلُّ عرشاً من دعائمه روحي وبسطة ملكه جسدي
تهتاجني من فيه زقزقةٌ تَرِي بصوت البلبل الغردِ
يرنو اليَّ وبا لمقلته بصاصةٌ كالنجم في الجلدِ
ويهفُّ نحوي منشباً يدهُ في العين أو في النحر والعضدِ
فأزقهُ قبلي وأرهقهُ وأكاد أرجعهُ الى كبدي !
فكأنني وأنا أدغدغهُ طفلٌ وطفلي دميةٌ بيدي !

ولشاعر الارز شبلي ملّاط في أولاده أبيات طيبات :

لقد بكر الثلاثة يوم عيدٍ وقاموا كالملائك حول مهدي
بسطت اليهم زندي فألقوا بانفسهم على صدري وزندي !
وقبّلني الكبير فهاج (شوقي) وعانقني أخوه فهاج (وجدي)
وذكّرني صغيرهما (غرامي) وما قاسيت من ميٍ وهندِ...
ليالي كان يشفع بي شبابي ويعذرني عليه عذار خدي !
ولولا النازلون على مشيبي وهم قومٌ أعزُّ الناس عندي
لعشت ولا أرى للعيش معنى وقد ذهب الشباب وبتُّ وحدي !

ومن لا يرتعش قلبه لوعةً عندما يقرأ رثاء الياس فرحات لابنته سعاد :

يهنيكِ نومك يا سعاد فانه نوم الرضيع على ذراع المرضعِ
يهنيكِ ياولدي السكون محركاً بجلال هيبته سواكن أدمعي!..
كم قبلةٍ تهفو الى شفتيَّ من قلبي الحزين الوالد المتفجّعِ...
حتى اذا وجدت سريرك خالياً رجعت فصارت جمرةً في أضلعي !

وللشاعر المهاجر زكي قنصل الذي خسر ابنته البكر — سعاد —

وهي في إبان تفتح براعم وردة حياتها فنظم لها ديواناً كاملاً من الشعر اقتطفت منه هذه القصيدة الشيقة — أرجوحة سعاد — حيث مهّد لها الشاعر بهذه الكلمات المنسلخة من قلبه المفجوع بسعاده: «واثرت الى جانب السرير أرجوحة الكروان الصريع تثير في قلب الشاعر ذكريات العهد الندي».

بالغالبين حشاشتي وجناني أفديك يا أرجوحة الكروانِ
غالت بشاشتكِ الرزية وانطوت
دنيا ازدهت بالروح والريحانِ

سقياً ليالي الأنس والأمل الذي
أشربتهُ ما سال من أجفاني!
ما كان أقصرها على سمّارها وأخفَّ وطأتها على الندمانِ
ما للزهور اذا رأتني أطرقت حيرى بأي تحيةٍ تلقاني!؟
ما للطيور اذا استشفت لوعتي غضّت حناجرهنَّ بالألحانِ
أرجوحة الكروان هدّمني الأسى إلا بقية مدمعٍ هتّانِ...
يجري على قبر الحبيب ولم يكن لولاه بالجاري ولا الحرّانِ
إني ليجرح مقلتي ويمضني مرآكِ بين مخالب الأشجانِ
شوهاء خافتة الضدى كقصيدةٍ جوفاء عاطلةٍ من الأوزانِ!
إن الذي أعطي استردَّ عطاءهُ يا ليتهُ استأنى فما أعطاني!
أمن العدالة ان تصوّح روضتي في عنفوان ربيعها الفتّانِ
وتحيل عرسي مأتماً لا ينتهي وتعدُّ في عيد المنى أكفاني!
كروانيَ المعبود ضمته الثرى يا موت لا ترحم أبا الكروانِ!..

وكانت احدى شاعرات العرب واسمها أميمة تناجي ولدها وترقصه على يدها قائلةً :

يا حبذا ريح الولدْ ريح الخزامى في البلدْ
أهكذا كل ولدْ أم لم يلد مثلي أحدْ...

ومن مؤثر مارثت به ولدها القتيل شاعرة اعرابية من بني عبدود :

يا فرحة القلب والأحشاء والكبدِ يا ليت أمكَ لم تحبل ولم تلدِ...
لما رأيتكَ قد أدرجتَ في كفنٍ مطيباً للمنايا آخر الأبدِ...
أيقنتُ بعدكَ اني غير باقيةٍ وكيف يبقى ذراع زال عن عضدِ

وللشاعر المعروف امين نخله في ولده — سعيد — وهو في السادسة من عمره قصيدة بعنوان — العصفور — وهاك بعض ما جاء فيها :

يا حبيب الغصن : صفّقْ بالجناحْ وانزل الوادي وبشّر بالصباحْ
صيحةً منكَ على الضفة ، أو زيكةً خلف البساتين الفساحْ
إن صبحاً أنت لم تهتف بهِ هو كذّاب التباشير وقاحْ!..
وترى الوادي فراغاً موحشاً يوم لا يملأه منك الصياحْ
يا رقيق الريش والصوت ويا أخضر الدار ويا حلو المراحْ
أسأل الله لك اليمن على منكب الجو وفي عصف الرياحْ
انه عصفور قلبي تأحلُ ناعمٌ لو صدّه الورد لزاحْ...
صوتهُ في البيت أنسٌ سائجٌ واسمه أهنأ من سلسال راحْ
صرت من أجل (سعيدٍ) مشفقاً ان تهب الريح في وجه الأقاحْ!

ومن أبلغ ما قيل في — المشيب الجميل — هذه القصيدة للشاعر المدني قيصر سليم الخوري وفيها حنان وعطف ولهفة الأبوة الحقة واستكانة الشاعر الى اولاده بعد عودته من السفر في سبيل تحصيل العيش لهم :

وثلاثة لما ضممتهم الى صدري شفيت من الفؤاد غليلا
يتسارعون اليَّ حين أعود من سفرٍ قصيرٍ قد رأوه طويلا...
فتخالنا عند التعانق دوحةً صغرى تريكَ نضارةً وذبولا
ما بال قلبي كلما أعطيتهم أضعاف ما طلبوا أظلُّ بخيلا
وعدى لهم أربٌ فان قصرت يدي عن مطلبٍ فرحوا به تعليلا
قبلاتهم عند السؤال عطيةٌ منهم تعيد السائل المسؤولا
يا طالما أدنيت خديَّ مغمضاً عيني أفتح للسؤال سبيلا...
قد فرجوا عني الهموم وزحزحوا عن منكبي صخراً أصمَّ ثقيلا

فما أجمل عودة الاب بعد جهد النهار وتعبه الى منزله حيث يعانق أنجاله الاحباء المنتظرين مقدمه بفروغ صبر ولهم كما تعلمون مطاليبهم اليومية والتي لولاها لما سعى احد من الناس وما عمل ولا اشتغل! وبهذا حافز للاب لينشط ويجاهد في سبيل العيش الكريم وبذلك لذة ما بعدها لذة ومتعة ما بعدها متعة! ومهما أعطيتهم مما طلبوا تجد نفسك بخيلاً مهما كنت كريماً معهم واعطيتهم روحكَ وقلبكَ!

وصدق الشاعر بقوله:

ما بال قلبي كلما أعطيتهم
أضعاف ما طلبوا أظلُّ بخيلا
لولاهم ما كان ضعفيَ قوةً
والعسر يسراً والمشيب جميلا...